السعديون ، جعلوا مراكش عاصمة لهم وأدركت في عصرهم شأواً عظيماً فقد انشأ السلطان الغالب بالله في عشرة السبعين وتسعمائة جامع الاشراف الكبير بحومة المواسين والسقاية المتصلة به التي كان عليها مدار المدينة وبنى المارستان للمجانين الكائن بباب الطالعة ووقف عليه أوقافاً عظيمة وقد صار فيما بعد سجناً للنساء ثم صار الآن تجهز فيه أموات الفقراء ، وأنشأت مسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبي مسجد باب دكالة الكبير وجعلته في صورته وشكله كمسجد المواسين ، وفي أيام السعديين اسس المسجد الاعظم بحومة ابن صالح ومدرسته الكبيرة ومناره العجيب الشكل الذي لم يُر مثله المطعم بالزليج الاخضر المركب بالمسامير بحيث يزال ويرد بدون حفر ولا تقليع ؛ وذكر صاحب النزهة ان السلطان عبد الله السعدي ابتنى الجامع الكبير الكائن بجوار أبي العباس السبتي وشيد مناره وشحن الخزانة التي بقبلي الجامع المذكور بنفائس الدفاتر وأهم آثار الملوك السعديين بمراكش هو قصر البديع الذي بناه السلطان أبو العباس أحمد المنصور الذهبي فقد سارت بذكره الركبان وروى حديثه فلان عن فلان وكان ابتداء الشروع في تأسيسه في شوال خامس الاشهر من خلافته سنة ٩٨٦ واتصل العمل فيه الى سنة ١٠٠٢ لم يتخلل ذلك فترة وحشد له الصناع من بلاد الافرنج فكان يجتمع كل يوم فيه من أرباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق عظيم وهو عبارة عن دار مربعة الشكل محتوية على الكثير من القباب والقصور وبه من الرخام والمرمر والزليج الملون ما يبهر العقول وفي حيطانه وسقوفه من الجبص المخرم المموه بالذهب والفضة ما يسحر الالباب ومما قالوا فيه :

كل قصر بعد البديع يذم
فيه طاب المجنى وطاب المشم
منظر رائق وماء نمير
وثرىً عاطر وقصر أشم
إن مراكشاً به قد تباهت
مفخراً فهي للعلا الدهر تسمو

ونقش في داخل قبابه وحيطانه من الاشعار الدقيقة لادباء عصره ما يجل عن الوصف ومن شاء امتاع ناظره من ذلك فليراجع الجزء الثالث من الاستقصا ، ومن آثار السعديين الباقية الى الآن الدالة على عظمتهم مقبرة ملوكهم وعائلتهم الكائنة قرب مسجد المنصور بالقصبة التي كل من زارها يقف مندهشاً لما فات لهؤلاء الملوك من العناية وعلو الهمة كما يستدل في وقت واحد على ما كان بمراكش الحمراء من رفعة الشأن من الصنائع التي هي عنوان التمدن والحضارة وغالب ملوك السعديين وأولادهم وبناتهم مدفونون بهذه المقبرة وكل قبر مغطى برخامة محدودبة منقوش عليها بخط جميل اسم صاحبه وتاريخ وفاته وبعض أبيات شعرية في رثائه أو في موعظة الموت .

(البقية في العدد)

على ذكر مراكش

هل في هذه البلاد بلدة كان لها من العظمة والشان ما كان لمدينة مراكش ؟ ألم تكن عاصمة لمملكة امتدت شرقاً الى طرابلس وشمالا الى جبال البرينية ، ألم تكن قاعدة المغرب في أعز ايامه فكانت دار علم وصلاح وبأس شديد تخرج منها الجنود الظافرة وتتلاقى فيها الوفود العالمة المفكرة .

وأين الحاضر من الماضي ؟ فمراكش الآن مثل الحسناء العجوز ليس لها الا التغني بماضيها ، فقدت كل شيء

وصار من الصعب ان نطلق عليها حتى لفظ المدينة ، فما هي الا قرية ضخمة ممتدة في بسيط احمر من الارض .

القوافل والمواشي تتخلل شوارعها فتزاحم الادميين وتتجمع فيها الوان الحياة المغربية في رفاهيتها وبؤسها واختلاف اجناسها ولهجاتها ، أهلها الفوا الظلم والاستعباد حتى صاروا يستغربون اعمال العدل والاحسان ، والفوا القحط والمسغبة حتى اخذوا يستغربون نزول المطر في ابانه وجود الارض بخيراتها على الفلاح العامل ، تربتها من اطيب تراب هذه البلاد ومن اقلها انتاجاً ، هواؤها نقي لطيف منعش وجوها تام الصفاء يبهج الفؤاد ويشرحه ولكن طول الاقامة فيها تتعب الجسم وتنهكه .

تلك مراكش جمعت من المتناقضات ما لست احصيه عدا.

والحقيقة ان مراكش لا ترتبط في ذهني بصورة من صورها الحقيقية بل هي دوماً عندي تلك البلدة البعيدة ـ مع اني ذهبت اليها قريباً ورجعت في نفس النهار ـ فهي باب الصحراء ومرحلة من مراحل التاريخ فاذا ذُكرت انما تنبه في نفسي اسم رجلين بينهما من التباين ما بين مراكش اليوم ومراكش الامس هما المعتمد ابن عباد والمهدي ابن تومرت .

ولست ادري ما سبب هذا الارتباط في ذهني بين الرجلين من جهة وبينهما ومراكش من جهة اخرى ، كلاهما ليس من مراكش : احدهما اندلسي صميم بلطفه وأدبه ورقته والاخر بربري جبلي بتقشفه وشدته ودهائه ، قد يكون ذلك لان احدهما قهرته مراكش والاخر قهرها فأخذ احدهما بثار صاحبه عن غير تعمد .

فلما زرت مراكش لاول مرة سعيت في زيارة مدفنهما ، أما قبر ابن تومرت فهو مشهور في قرية تنمل بكثافة يتصل بمراكش بطريق معبدة وان كانت شديدة الالتواء مارة في سفح هضاب عالية ، وأما قبر المعتمد فهو في اغمات ولكن أين من يعرف اغمات ؟ المشتغلون بالكتب يعلمون ما كان لها من الجاه ولكن لا يبلغ بهم حب الاستطلاع الى البحث عنها وزيارة معالمها .

ذهبت لنقابة السياحة سائلا فرجعت خائبا لان القائم بأمر المكتب لم يسبق له سمع هذا اللفظ وهو غير مرسوم في خريطة الضواحي المراكشية التي ينصح للسواح بزيارتها عادة .

في النهاية ارشدنا احد الاخوان سبقت له زيارة اغمات في صحبة صديقنا دي رباراز المستشرق الاسباني احد المولعين والمعجبين بالمعتمد .

خرجنا من مراكش بعد الظهر في اشد حرارة النهار وما بعدنا عن المدينة ببضع كيلو مترات حتى خرجنا من الطريق المرصفة واندفعنا في طريق لم تمسسها يد الانسان بعد ، ذات اخضرار بهيج متفجرة بالمياه من كل جانب ، وما هي الا مسافة حتى خرجنا في واد يشق الارض ويفصلها مياهه متكاثرة ثائرة اذ الفصل فصل الربيع حيث تذوب الثلوج وتنتعش الاودية والانهار ، فما زلت أتذكر بكل لذة رسوب عجلات السيارة في اوحال الوادي ونزولنا وسط الماء لدفع السيارة ومساعدة محركها.

وكانت حرارة النهار تلطفت وعذب نسيم العشي وتوغلنا في منظر هو من اجمل المناظر الطبيعية فكان الافق امامنا كله ، محدود بسلسلة من الجبال العالية تتوّجها الثلوج البيضاء وتنعكس عليها اشعة شمس الغروب الخافتة فتصطبغ بمختلف الالوان من بنفسجي الى وردي الى مخضر وكان ذلك النسيم الدافيء يهب فيبعث في نفوسنا انشراحاً ونشاطا .

فما وصلنا لقرية اغمات أوريكة الا عند الغروب ،

واغمات اليوم انما هي قرية فقيرة فيها بعض مساكن الرعاة والفلاحين وهناك خارج القرية في سفح ذلك الجبل العظيم حوش متهدم في وسطه كدية من الاحجار قالوا هي قبر المعتمد واخرى بجانبها قالوا هي قبر الروميكية زوجه.

ولعل الاخوين طارو الكاتبين الافرنسيين يصدقان عند قولهما : « ان قبر المعتمد هو كل هذا المكان الجميل ، هو هذه الاشجار المخضرّة ، هو هذه المياه الجارية ، هو هذه الشمس المحرقة ، هو هذه الظلال الكثيفة ، هو تلك الثلوج التي نراها تبرق عن بعد ، هو ذلك الشيء الذي لا يوصف ويبعث في النفس لذة ويفصلها عن هذا العالم الفاني ، هو ذلك النسيم الذي استنشقته ذلك الصباح في هذا المكان الفردوسي . »

عجباً لقساوة الزمان في معاملة هذا الملك الشاعر ! فمن يصدق ان المعتمد مات ودفنوا جنازته على انها جنازة غريب .

وأي رثاء يرثى به احسن من هذه الابيات التي تركها لتكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي
حقاً ظفرت باشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى اذا اتصلت
بالخصب ان اجدبوا بالري للصادي
بالطاعن الضارب الرامي اذا اقتتلوا
بالموت احمر بالضرغامة العادي
نعم هو الحق وافاني به القدر
من السماء فوافاني لميعادي
ولم اكن قبل ذاك النعش اعلمه
ان الجبال تهادى فوق اعوادي
كفاك فارفق بما استودعت من كرم
رواك كل قطوب البرق رعاد
يبكي اخاه الذي غيبت وابله
تحت الصفيح بدمع رائح غادي
حتى يجودك دمع الطل منهمر
من اعين الزهر لم تبخل باسعاد
ولا تزل صلوات الله دائمة
على دفينك لا تحصى بتعداد

فمتى تقيم مراكش موسم المعتمد ؟ ومتى ترضيه ميتاً بعد ما اغضبته حيا ؟ ومتى نلبي ارادته ؟ أ. ب.

المنصور الذهبي

للمؤرخ المحقق سيدي محمد بن عثمان الاستاذ بالكليه اليوسفية

إنه لمن دواعي السرور والاغتباط أن تتاح الفرصة لاحياء ذكرى المائة التاسعة لعاصمة العلم والفخار مراكش الحمراء ، وأن تكون تلك الذكرى الخالدة من ابتكارات «مجلة المغرب» التي نشكرها على هذه الذكرى السعيدة التي سمحت لي بالمشاركة في احياء بعض تراثها حسب ما تسمح به الظروف وتقضي به الحاجة .

ويزداد اغتباطي بتخصيص الكتابة في عظيم من الافراد الذين أنجبتهم الحمراء ورفعت في سماء المجد مكانتهم فكونت منهم ذالك العلم المفرد الذي منحته التأييد فبدا منصوراً في أعماله موفقاً في آرائه .

ذلكم الرجل الفذ والعلم الشامخ هو أبو العباس أحمد ابن الشريف محمد الشيخ الشريف السعدي الملقب بالذهبي الذي كان تاجاً ذهبياً على هامة الدهر ومثالاً فخماً للامارة الاسلامية في المغرب الاقصى تلكم الشخصية المجيدة وذلكم